وهذه الفكرة يبدو أنها تقلِّلُ من أهمية مفهوم الانعكاس[142] الذي غالباً ما يُعطي الانطباع بأن العلاقة بين الإديولوجيا (باعتبارها مجموعة من الدلائل) وبين الواقع الاجتماعي والاقتصادي، هي علاقة ميكانيكية فاعلة من جانب البنية التحتية، ومنفعلة وسالبة من جانب البنية الفوقية، وأنه لكي تُفْهَمَ البنيةُ الفوقية (الإديولوجيا، والأدب) لا بد من الرجوع إلى المُسَبِّبِ الأول (العلاقات الاجتماعية، والحالة الاقتصادية).

إن «باختين» يرفُضُ تماماً مصطلح السببية (La causalité)، لأنه يقودُ، في نظره، عادة إلى ربط علاقة ميكانيكية بين الإديولوجيا (اللغة كدلائل) وبين البنية التحتية. وهو يرى بهذا الصدد، أن العلاقة بين البنية التحتية والبنية الفوقية ليست علاقة سببية بالمعنى الذي يحدِّدُه التيار الوضعي للمدرسة الطبيعية، **فالبنية الفوقية ليست مجرد نتيجة، ولكنها امتدادٌ للبنية التحتية وتجلٍّ آخر لها على المستوى الإديولوجي.** كما يجب الانتباه إلى أن كل حقل إديولوجي، هو مجموعة فريدة وغير قابلة للانقسام، حيث تعمل كل عناصرها على تغيير البنية التحتية نفسها، **وفي هذه الحالة لا تبقى الإديولوجيا مجرد نتيجة، ولكنها تصبح مُنْدَمِجَةً، في كلِّ منفعلٍ وفاعلٍ مع البنية التحتية**[143].

ومن حسن الحظ أن «باختين» يتَّخِذُ الرواية هنا كمثال لتوضيح أخطاء التعامل الآلي مع الإديولوجيا، فيرى أن الجهل بالخصائص النوعية للمادة الإديولوجية يُوقِعُ الدارسين في أخطاء كثيرة، منها مثلاً أنهم يقتصرون على ذكر قيمتها التعيينية العقلانية (Valeur dénotative rationnelle) كالقول إن البطل «رودين» (Rodine) يساوي «الإنسان الزائد عن الحاجة»(*)، وربط هذه المركِّبَة (Composante) بالبنية التحتية التي يتضمن معناها عنوان رواية «تورجنيف» نفسه؛ ذلك أن «الإنسان الزائد عن الحاجة» يحمل دلالة العقم الذي أصاب طبقة النبلاء[144]. ولا شك أن «باختين» يُنبِّهُ هنا إلى ضرورة مراعاة دلالة البطل «رودين» وإديولوجيته داخل النسق الروائي أولاً وقبل كل شيء.

---

(142) ان الأمر على كل حال، يبدو هكذا، وان كنا نرى بأن «باختين» في العمق يَسْقُطُ في النظرة الانعكاسية، عندما يقول مثلاً، وهو بصدد تحليله لروايات دوستوفسكي بأن الكاتب محايد، وليس له سوى موقف واحد ضمن مجموعة من المواقف المتصارعة، بمعنى أن صوت الكاتب هو واحدٌ من جملة الأصوات التي تدخل إلى الرواية كمُكوِّن وليس كمؤسس للرّؤية العامة الفكرية في الرواية، وسنعالج هذا الجانب فيما بعد.

(143) Ibid., P 35 - 36.

(*) يُوضِّح باختين أيضاً في الهامش بأن هذا عنوان رواية للكاتب تورجنيف Tourguenieve وهي تتضمن اعترافات جيل بكامله وخاصة جيل الثلاثينات من القرن التاسع عشر، وهو جيل عُرِفَ في تاريخ روسيا باسم «الجيل المثالي» إذ كان يتميز بعجزه عن المبادرة. (انظر ص 36 من المرجع السابق).

(144) Ibid., P. 36.